كتبها Administrator
الجمعة, 01 مايو 2015 01:33 -

تقديم

لو كنت أستطيع لقمت بترجمة مئات القصص القصيرة من الأدب العالمى إلى اللغة العربية. فأنا من أشد المتحمسين إلى ضرورة تطعيم الآداب بعضها ببعض , هذا التطعيم هو الذي يدفع الأدب القومي إلى مزيد من الازدهار , ولأن الأدب - كالعلم - ينبغي أن يتوزع عطاؤه على كل شعوب العالم . وتثبت التجارب أنه ما من أدب استقبل ثمار أدب آخر إلا ازداد بها قوة , واندفع من خلال الاطلاع عليها وهضمها إلى آفاق أخرى جديدة . .

ويحضرني هنا أن نجيب محفوظ بدأ حياته الثقافية بترجمة كتاب عن مصر القديمة , وعلى الرغم من أنه كتاب علمي في مادته ومنهجه , إلا أنه كان فاتحة خير للمترجم , كي يكتب بعد ذلك ثلاث روايات عن الحياة المصرية القديمة هي: رادوبيس وعبث الأقدار وكفاح طيبة . النتائج إذن تخرج من مقدماتها . ولن يبرز بيننا أديب مصري أو عربي متميز دون أن يكون قد تزود بالكثير من الثقافة المحلية والعالمية . وكما قيل بحق إن " الأسد ليس إلا عدة خراف مهضومة ".

لن يكون من العيب ان أذكر هنا قصتي مع اللغات الأجنبية التي تعلمتها , وكانت أولاها الإنجليزية التى درستها على نحو هزيل دون أن أحقق فيها شيئاً يذكر . ولم يكن ذلك ذنبي , وإنما ذنب المنهج المدرسي والجامعي العقيم الذي يجعل من اللغات الأجنبية مقرراً نظرياً , يخلو من التدريب والممارسة , ولذلك يخرج التلاميذ والطلاب دون أن يستطيعوا . .

حتى محاورة زائر أجنبي , أو دلالته على ما يمكن أن يراه من معالم سياحية في بلاده. ومع ذلك فقد ظللت أحاول - عبثاً - أن أجيد الإنجليزية , وأحسن وسائلي فيها , لكن النتيجة توقفت عند قراءة بعض النصوص , ومحاولات فاشلة لترجمة جزء من كتاب عن الفكر الإسلامي , اكتشفت بعد فترة أنه مترجم بالفعل !

وحدث في عام 197. - أنني جندت بالجيش . وكان من حظي أن أقضي فترة التجنيد متعلماً ومترجماً للغة الروسية . وفي فترة التعليم - التي كانت جادة جداً - درست لنا اللغة أستاذة روسية , كانت مثقفة للغاية اسمها " إليانا باريسي " .

وهي سيدة عجوز , لكنها كانت على درجة عالية من النشاط والاهتمام . وعندما وجدتني مقبلاً على تعلم اللغة الروسية منحتني اهتماماً خاصاً , وحين علمت أنني شاعر , أعارتني من مكتبتها الخاصة بعض المؤلفات الروسية لبوشيكن وتشيكوف وغيرهما , كنت أقرأها بصعوبة , ولكنني كنت أعجب كثيراً بمحتواها ..

في تلك الأثناء أقبلت - في فترة فراغي النسبي - على ترجمة بعض القصص القصيرة من الروسية مباشرة , وهي (بنت القصير , جسر بتشوجين , الطاقية السوداء , كلمة شرف , آستا .. مدرِّستي الجميلة) .. وقد كانت النية أن أستمر في ترجمة العديد من القصص , والقصائد الروسية الجميلة (التي لم أنشرها بعد) , لكنَ حدث ما غير خططي تماماً .

في أواخر سنة 1974 , سافرت في بعثة حكومية للحصول على دكتوراة الدولة من جامعة السوربون بفرنسا . وكانت مفاجأة كاملة . فأنا لا أعرف حرفاً من اللغة الفرنسية . لكنني كنت دائماً تواَقاً إلى الرحلة إلى الغرب , والتعرف المباشر على حضارته التي قرأت عنها كثيراً .. وفي باريس , بدأت رحلة شاقة مع اللغة الفرنسية ودارستها في أكثر من مدرسة في وقت واحد , حتى كانت فرحتي الكبرى عندما قرأت - لأول مرة ودفعة واحدة - رواية الغريب لألبير كامي .. ولأن من عادتي أن أقرأ بسرعة , لذلك فإن الألم الذي عانيته من القراءة البطيئة بالفرنسية في المراحل الأولى كان أكثر مما يحتمل ..

في باريس قضيت ما يقرب من سبع سنوات , متجولاً في مكتباتها قارئاً نهماً لكل ما كان يتيسير لي الاطلاع عليه , سواء في المكتبة الوطنية , أو مكتبة جامعة السوربون , أو حتى مكتبات الحي اللاتيني المشهورة في شارع سان ميشيل أو المنزوية في الحارات الجانبية .. وميزة المكتبات التجارية في باريس أنها تتيح لكل إنسان أن يسحب من فوق الرف الكتاب الذي يعجبه ويظل يقرأ فيه .. دون أن يزعجه البائع بالمتابعة أو الملاحقة أو التذمر! ميزة أخرى , أن القراء بعد أنيشتروا الكتب وينتهوا من قراءتها يمكنهم أن يبيعوها مرة أخرى للمكتبة , التي تضع فوقها خاتماً يدل على أن الكتاب مستعمل , وهكذا يعاد بيعه - للقارئ البسيط من أمثالي - بسعر منخفض جداً , ومن هذا الطريق , اشتريت الكثير جداً من الكتب الهامة .

شعور غريب كان يخالجني وأنا أعيش في قلب حركة الطباعة والتأليف الفرنسية: وهو أنه لابد أن أنقل - أو ينقل غيري من العرب -كل تلك المؤلفات أو معظمها إلى اللغة العربية , نظراً لأهميتها البالغة , سواء على مستوى الإبداع الأدبي والفكري أوعلى مستوى الدراسات والبحوث الأكاديمية والثقافية ..

وفي بداية الثمانينات , عدت إلى القاهرة , وأنا شديد الاقتناع بدور الترجمة العلمية والثقافية . فضلاً عن الجانب الأدبي .. لكنني وجدت الجو العلمي والثقافي منشغلاً بقضايا هامشية , كما فوجئت بأن الترجمة لم يعد لها اعتبار يذكر في التوقيعات العلمية بالجامعة , الأمر الذي أدى إلى انصراف اساتذة الجامعة عنها , وذلك بالإضافة طبعاً إلى مكافأتها المادية المتدنية للغاية , ونظرة الناشرين لها على أنها عمل لا يستحق عناء النشر , لأن كتب التراث كانت هي التي تتصدر قائمة الاهتمامات..

وأذكر أنني كتبت مقالاً بعنوان " دور الترجمة في الفكر العربي المعاصر ، نشر في سلسلة " دراسات عربية وإسلامية " - الجزء الثامن وحرصت على أن يكون هو موضوع أكثر من محاضرة ألقيتها في أسبوع ثقافي بسلطنة عمان سنة 1995 . ثم أودعته فيما بعد كتاب " الدوائر المتداخلة " القاهرة 1995 الذي يتحدث عن " تحقيق التراث , والترجمة

والتأليف " , باعتبار الثلاثة ركائز لا غنى عنها في أي حركة علمية أو ثقافية ناجحة .

وخلال تلك الفترة كنت أترجم من وقت لآخر قصيدة أو قصة أو مسرحية أو كتاباً من الفرنسية إلى العربية , لكن الكثير من ذلك لم ينشر بعد , وظل بين أوراقي , لا تقع عيني عليه إلا تحسرت على حال الترجمة ومصير الأعمال التي تقدم صورة أخرى من العالم , أو الحقيقة !

وفي لحظة تصميم أو فلنقل: لحظة تهور ! جمعت ما ترجمة من قصص قصيرة مترجمة عن الروسية , إلى جانب مجموعة أخرى ترجمتها من الفرنسية , بعضها منقول إليها من التراث الألباني , الذي سوف يلاحظ القارئ العربي فيه مسحة من التراث الشعبي والصوفي (فاطمة , الدب والدرويش , كيف سقط السروال من حسان) ، والبعض الآخر بقلم كتاب فرنسيين مثل (الوظيفة السهلة , وصفحات الوفيات , مدينة وامرأة) .

وفي الختام , أعتذر إذا لاحظ البعض أن إحدى هذه القصص قد ترجمت في مكان آخر , لأنها نتاج فترة طويلة , ربما امتدت إلى ثلاثين عامًا , ولم يتح لي خلالها أن أتابع (كل) ما يصدر في الوطن العربي من أعمال أدبية مترجمة .

وإلى القارئ التحية ,,

دكتور حامد طاهر

نوفمبر 2000